بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ٦ (ربيع وصيف ١٤٣٣ هـ. ق/ ١٣٩١ هـ. ش)، ص ٥٥ ـ ٧٤

مظاهر المقاومة في شعر مظفّر النواب[١]

حسن دادخواه*

ناصر تابع جابري**

ملخّص البحث

لقد غلبت النزعة السياسية بطابع أدب المقاومة على شعر بعض الشعراء المعاصرين حتى عُرفوا بشعراء المقاومة. مظفّر النوّاب ـ الشاعر العراقي المعاصر ـ أحد هؤلاء. ترعرع النوّاب في عائلة عراقية شيعية عريقة ووجيهة، ورث منها الأدب والموسيقى والنزعة السياسية المعارضة ضد الظلم والاستعمار، إضافة إلى الانتماءات الشيعية بطابعها الثوري التي تتمحور حول الإمام علي وتضحيات الإمام الحسين عليه السلام.

انتمى النواب إلى الحزب الشيوعي الذي كانت شعاراته تقترب من أهداف النوّاب آنذاك. فجاء شعره متناسقاً مع انتماءاته وتطلّعاته نحو العدالة والحرية ونبذ الظلم والفساد. تعرّض النواب إلى السجن والتعذيب عدّة مرّات؛ فاضطُرّ إلى الخروج من العراق والاغتراب في بلدان مختلفة.

أنشد النواب شعره بالعاميّة والفصحى، لكنّه مال إلى الفصحى بعد احتلال إسرائيل لفلسطين وهزيمة العرب أمامه؛ فانطبع شعره بالطابع الثوري وأدب المقاومة، حيث يوصف بـ«شاعر فلسطين».

يوجّه النوّاب هجاءً حادّاً ونقداً لاذعاً ـ في غالبية الأحيان ـ إلى القادة والحكومات العربية، وخصوصاً دول الخليج الفارسي، لتواكلهم وتقاعسهم أمام قضية فلسطين، والأوضاع السّيّئة في البلاد العربية، مما أدّى إلى منع شعره في هذه البلاد. وفي المقابل، شعره مفعم بالإشادة بالثوّار والفدائيين والشهداء، والدعوة إلى انتهاج أسلوبهم في المقاومة المسلّحة من أجل الحرية والعدالة، وكذلك دحر الاحتلال ومواجهة الاستعمار.

نحاول في هذا البحث دراسة مظاهر أدب المقاومة في شعره.

المفردات الرئيسية: الأدب العربي المعاصر، أدب المقاومة، الأدب السياسي، مظفر النوّاب

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٩١/٣/٣هـ. ش (٢٠١٢/٥/٢٣م)؛ تاريخ القبول: ١٣٩١/٦/٢٥هـ. ش (٢٠١٢/٩/١٥م).

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «الشهيد چمران» ـ أهواز.

** طالب الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة «الشهيد چمران» ـ أهواز.

سابقة البحث وأسلوبه

فيما يخص الأسلوب الذي اتخذناه في بحثنا هذا وصولاً إلى النتائج الناجعة وتقديمها للقارئ الكريم، فإننا حرصنا على استقصاء جميع المصادر الموجودة، بحثاً عن مسيرة حياة الشاعر واتجاهاته ومعتقداته، وكذلك آراء الباحثين والأدباء حوله، ووجهات النظر حول أدبه واتجاهاته وأساليبه في الشعر. ثم بعد قياس هذه الآراء بحياة الشاعر وأقواله نفسه، قمنا بتحليل شعره ودراسة مختلف اتجاهاته وموضوعاته. وطبعاً تمحورنا في ذلك حول موضوع الأدب السياسي بشكل عام، ومظاهر أدب المقاومة في شعره بشكل خاص لسبر موضوعات شعره واتجاهاته بشكل أدقّ، كي نخرج بنتائج أكثر قرباً من واقع شعره.

وجدنا خلال البحث عن المصادر الأكثر علمية أن بعضها يمكن الاعتماد عليه كسابقة للبحث. فهناك دراسة مفصلة لشعر مظفر النواب تحت عنوان *مظفر النواب، حياته وشعره* لباقر ياسين، والتي تعتبر أكثر علمية وشمولية. يتطرّق فيه الكاتب إلى حياة النواب ومسيرته الأدبية، وكذلك يقوم بتحليل مختلف اتجاهات شعره وموضوعاته. فغير هذه الدراسة التي خرجت بشكل كتاب قلّما نجد مصدراً بمستواه، ولكن هناك بعض الكتب تناولت شعره؛ ككتاب *بناء السفينة، دراسات في النص النوّابي* لمحمد طالب الأسدي، حيث تناول خلاله اللغة الشعرية للنواب؛ وكذلك كتاب *مظفر النواب، رحلة الشعر والحياة* لـميّادة خضر علي، فهي تناولت خلاله حياة النواب وتحتوي على حوارات معه حول شعره ونماذج منه؛ ثم كتاب *مظفر النواب سجين الغربة والاغتراب* لـأحلام يحيى ركّزت فيه على جانب الغربة والحزن والمعاناة في شعر النواب.

وهناك دراستان نُشرتا في مجلات محكّمة إيرانية: إحداهما للمؤلفَين جهانگير أميري وسعيد أكبري تحت عنوان «بررسي درون‌مايه‌هاي شعر مظفر النواب» نشرت في *مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها*، العدد التاسع، عام ١٣٨٧ هـ. ش، حيث تناولت حياة النواب وشعره واتجاهاته بشكل عام؛ ودراسة أخرى تحت عنوان «التناصّ القرآني في شعر مظفّر النواب» لـمرضية آباد وبلاسم محسني نشرت في فصلية *اللسان المبين*، العدد الخامس، خريف ١٣٩٠ هـ. ش.

فلذلك هذه المقالة أول دراسة ـ كما نرى نحن ـ مخصصة لمظاهر أدب المقاومة في شعر النواب.

التمهيد

عندما نتكلم عن شعر المقاومة، سرعان ما يتبادر إلى الذهن موضوع فلسطين والمقاومة فيها؛ لأنّ القضية المركزية والانطلاق لهذا النوع من الشعر هو ظهور إسرائيل كدولة في الوطن العربي واحتلالها فلسطينَ، لكن شعر المقاومة لا ينحصر بفلسطين، بل «**يطلق على جميع الإنتاجات الأدبية التي تنشأ نتيجة ظروف كالاختناق، والاستبداد الداخلي، وفقدان الحرّيات الفردية والجماعية، واللاقانونية، واحتلال الأراضي ونهب الثروات الوطنية والقومية...**» (حسام پور وحاجبي، ١٣٨٧هـ. ش، ص ١٢١ـ ١٢٢).

وأدب المقاومة يعتبر ضمن الأدب الملتزِم والسياسي الذي يعبّر عن جهود شعب تعرض لهجوم عسكري أو ثقافي أو ديني أو ... وتضحياته وكفاحه ومظلوميته، وهو يعاني الحرمان والمتاعب في هذا الطريق.

ويعتقد بعض أن أدب المقاومة العربي استلهم جلّ فحواه من المعاني الإنسانية في شعر شعراء المقاومة في العالم، وخصوصاً في إسبانيا وأمريكا اللاتينية، مع طعم من المقاومة المسلحة الفلسطينية (شفيعي كدكني، ١٣٨٧هـ. ش، ص ٢٧).

طبعاً لا نقدر على البتّ في هذا الرأي أو رفضه، لكننّا نستطيع أن نشير جازمين إلى دور شعر المقاومة الفلسطيني وأثره في إعطاء لون حديث وطابع جديد للشعر العربي المعاصر وزيادة غناءه وفاعليته؛ فإننا نلمح بوضوح طابع الألم والحزن، والصمود والإلحاح، والوطنية، وكذلك التراثية في الشعر العربي بعد نكسة ١٩٦٧م.

حياة مظفّر النوّاب وانتمائاته

هو مظفر بن عبد المجيد بن أحمد حسن بن أحمد بن إقبال بن معتمد النوّاب. والنواب تسمية ربما جاءت من النيابة؛ أي: النائب عن الحاكم، حيث كانت العائلة تحكم إحدى الولايات في الهند. وعلى الرغم من أن أباه عبد المجيد وجدّه أحمد حسن من مواليد بغداد، إلاّ أن قصة العائلة وتاريخها وجذورها وتسلسل نسبها قصة طويلة. فهم في الأصل من الجزيرة العربية من سلالة الإمام موسي الكاظم عليه السلام. وبعد الاضطهادات التى حصلت ضد أتباع الإمام عليه السلام ـ واغتيل هو نفسه بالسّمّ خلال فترة هارون الرشيد ـ هاجرت العائلة إلى الهند باتجاه المقاطعات الشمالية (البنجاب ولكناو [= لكنهو] والكشمير)، واستطاعوا أن يستقروا هناك، ثم يصبحوا حكّاماً لتلك الولايات في فترة من الفترات.

وبدخول بريطانيا إلى الهند أصبحت العائلة معارضةً للاحتلال البريطاني. وبعد هزيمة الهند، عرض عليهم الإنكليز النفي السياسي وسمح لهم أن يختاروا المكان الذى يرغبون في الهجرة إليه؛ فاختاروا العراق، لأنهم قد جاؤوا منه في الأصل، إضافة إلى وجود العتبات المقدسة (ياسين، ٢٠٠٣م، ص ١٦).

وهناك رأي آخر يشير إلى الأصالة الهندية للعائلة، وهذا الرأي أيضاً يتداوله البعض (Ghareeb, ٢٠٠٤, p ١٧٢).

> **وكانت العائلة تسكن قصوراً جميلة ضخمة تطلّ على نهر دجلة الساحر في قلب مدينة بغداد. وكانت أبوابها الخشبية الضخمة التى تشبه أبواب القلاع تتسع لدخول مواكب عاشوراء بالخيول والأعلام والمشاعل؛ فكانت تدخل من باب لتخرج من الباب الثانى بعد أن تتحول باحة الدار مسرحاً لعرض المشاعل والزناجيل وألوان الأعلام وبريق القامات. وكان أهل الدار يرشّون ماء الورد على المواكب التي تدخل البيت، وهى تردّد بصوت هادر الأهازيجَ والردّات الحزينة والأشعار والتراتيل** (ياسين، ٢٠٠٣م، ص ١٦).

إن هذا المشهد المشبع بالحزن والأسى والطقوس المثقلة بالرهبة والخشوع كان يتكرر سنوياً داخل البيت في عاشوراء، مما ترك بصماته فيما بعد في شعر النواب وذكرياته (أنطون، ١٩٩٦م، p٣).

يقول النواب في أحد الحوارات معه: «**عندما كنت أذهب إلى المدرسة، بعد رجوعي من المدرسة كان والدي يطلب منّي أن أقرأ بعض الأغاني، وهو يعزف لي على العود. وكان جدّي يقرأ قصائده السياسية، وكان يطلب منّي أن أكررها من بعده. كنّا نغنّي معاً**»

(Hassan, ٢٠٠٣، p٥٦).

بعد بضعة أشهر من تعيين مظفر النواب مدرّساً في إحدى المدارس المتوسطة في قضاء المسيّب الواقع جنوب بغداد، تم فصله من العمل لأسباب سياسية؛ حيث كانت فترة الجامعة هي بداية علاقته بالحزب الشيوعي العراقي. فتعثرت الأمور وساءت الأوضاع المالية في العائلة أكثر من سابق. فصار النواب عاطلاً عن العمل منذ عام ١٩٥٥م حتى انهيار النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري في ١٤ تموز ١٩٥٨م. وخلال ذلك، وبالتحديد في عام ١٩٥٦م، كتب قصيدته الشهيرة «للريل وحمد» ـ وهي قصيدته الأولى ـ ونشرها في مجلة *المثقف* وقد أحدثت القصيدة ضجة كبيرة.

بعد عام ١٩٥٨م، أى: بعد انهيار النظام الملكى، تم تعيينه مفتشاً في مديرية التفتيش الفنّيّ بوزارة التربية في بغداد؛ فهيّأت له هذه الوظيفة فرصة الاهتمام والاعتناء ببعض الأشخاص الموهوبين من ذوي القدرات والاختصاصات الفنية والموسيقية.

وفي عام ١٩٦٣م اضطُرّ للهرب من العراق بعد اشتداد الصراع السياسى بين القوميين والشيوعيين، وهما القوّتان السياسيتان الرئيسيتان في البلاد آنذاك، مما أدى إلى تعرّض الشيوعيين لمزيد من الضغوط والمحاكمات من قبل السلطة.

وكان هروبه إلى إيران قد تم عن طريق البصرة عبر بساتين النخيل المتاخمة للحدود مع إيران. وقصة الهروب تلك قصة دراماتيكية تخلّلتها أحداث في منتهى الغرابة والإثارة، وهي التي يشير إلى بعضها بشيء من التفصيل في قصيدته المطولة «وتريات ليلية». لقد احتضنه الفلاحون في قرى الأهواز، وأخفوه وضمّدوا جراحه وساعدوه في التوجّه إلى العاصمة طهران في طريقه إلى روسيا، لكنه فشل في عبور الحدود الإيرانية ـ الروسية؛ فأُلقي القبض عليه في قرية قريبة من الحدود اسمها «أستارا»، وأعيد إلى طهران. وهناك أخضع لتعذيب جسدي ونفسي شديدين على أيدي جهاز الأمن الإيراني (السافاك). وهو يشير إلى ذلك «في الوتريات الليلية»، حيث يقول:

في طهران وقفتُ أمام الغول/ تناوبني بالسوط وبالأحذية الضخمة عشرةُ جلّادين/ و كان كبير الجلّادين له عينان كبيتى نمل أبيض مطفأتينِ/ و شعر خنازير ينبت من منخاريه/ و في شفتيه مخاطٌ من كلمات كان يقطرها / في أذنيَّ/ و يسألني: من أنتَ؟/ خجلت أقول له: قاومت الاستعمار، فشرّدني وطني (النواب، ١٩٩٦م، ص ٤٩٧ـ٤٩٨).

وفي ١٩٦٣/١٢/٢٨ سلّمته السلطات الإيرانية إلى العراق هو ومجموعة من العراقيين الهاربين. وبعد أيام بدأت السلطات في البصرة بتسفير الموقوفين إلى بغداد، وهناك قدم النواب إلى المحكمة العسكرية العرفية، فطلب المدعي العام العسكري الحكم عليه بالإعدام، إلا أن مساعي أهله وأقاربه أدّت إلى تخفيف الأمر إلى حدّ ما؛ فحكموا عليه بالسجن المؤبّد. وبعد انتهاء الجلسة، أصدروا بحقّه حكماً بالسجن ثلاث سنوات، إضافة إلى المؤبّد بسبب قصيدته الشعبية الشهيرة «البراءة».

وبعد أن صدرت بحقه تلك الأحكام القاسية، نقل إلى سجن «نقرة السلمان»، وهو سجن صحراوي بعيد جدّاً وسيّء الصيت يقع في عمق الصحراء الجنوبية الغربية من العراق، قرب الحدود السعودية. وبعد بقائه هناك فترة من الزمن، تم نقله إلى سجن «الحلّة»، وهو السجن المركزي لمحافظة الحلة الواقعة جنوب بغداد.

وفي هذا السجن بدأ النواب التخطيط لعملية الهروب الكبرى التي أحدثت ضجة في عموم البلاد في ذلك الوقت. وقد نجحت العملية، واستطاع الانفلات من السجن هو ومجموعة من السجناء من ذوي الأحكام الثقيلة. وكان ذلك في عام ١٩٦٧م.

وبعد هروبه من السجن توجه إلى بغداد، وبقي مختفياً فيها ستة أشهر؛ ثم توجه إلى الأهوار في الجنوب، حيث انطلق الكفاح المسلح في الريف، وعاش مع الفلاحين في منطقتي «الغرّاف» و«الحي» التابعتين لريف «الكوت» ما يقارب سنة (جيدة، ١٩٨٠م، ص ١٩٣).

وبعد عام ١٩٦٨ م صدر عفو عام عن الهاربين؛ فرجع إلى سلك التعليم في بغداد، وعُيّن في حيّ المنصور، وهو من الأحياء الراقية في العاصمة.

ثم ما لبثت أن حصلت موجة من الاعتقالات في صفوف الشيوعيين بعد قيامهم بعمليات اغتيال، شملت عدداً من الشيوعيين الذين تعاونوا مع السلطة الحكومية؛ فتم اعتقاله في تلك الحملة إلاّ أن جهود السيد على صالح السعدي ـ وهو من السياسيين القدامى ـ قد أثمرت في إطلاق سراحه، فأقنعهم بالسماح له بالسفر، بعد أن عرض النواب بأنه يريد السفر إلى بيروت للإشراف على طبع ديوانه هناك. فسافر إلى بيروت، وبقي فيها ستة أشهر. وبقى في دمشق فترة غير قصيرة؛ ثم سافر إلى القاهرة ومنها إلى

إريتريا، حيث بقي هناك بضعة أشهر في معايشة واقعية مع ثوّار إرتيريا ؛ ثم سافر إلى ظفار وأقام فيها ما يقارب ثلاثة أسابيع اطّلع خلالها على واقع الثورة التى كانت مندلعة آنذاك في مناطق ظفار وساحل عُمان. ثم توجه إلى القاهرة وبقي فيها سنة ونصف سنة، وفيما بعد عاد إلى بيروت، حيث أقام فيها ما يقارب سنة. ومن ثم سافر إلى دمشق مرة أخرى عام ١٩٧٣ـ ١٩٧٤م، ومن سوريا دخل العراق سرّاً من المنطقة الشمالية، وبقي داخل العراق أربعة أشهر.

وعندما عاد إلى بيروت عن طريق دمشق، وجد أن جميع لوحاته وأوراقه ووثائقه قد سُرقت مع باقي أثاث شقّته، فلم يكد يستقرّ في بيروت حتى سافر إلى اليونان عام ١٩٧٦م (المصدر نفسه، ص ٢٧).

وخلال تلك الحركة شبه الدائمة والسفرات الحرّة لمختلف الاتجاهات، بدأ النواب بالميل نحو التفكير المستقل الحرّ والابتعاد عن الالتزامات الحزبية والتنظيمية، وبدأ بالانفكاك التدريجى عن الحزب الشيوعى معزّزاً في نفس الوقت أسلوبه في النضال والممارسة الثورية انطلاقاً من آرائه الخاصة ورأيه المستقلّ ووجهة نظره الحرة في قضايا السياسة والوطن والمجتمع ؛ لذلك فهو لم يتقاعد، بل استمر مكرِّساً حياته وشعره ومواقفه لخدمة قضايا شعبه ووطنه.

و في عام ١٩٨٣م زار الجزائر، وأقام فيها أمسيات شعرية حظيت باهتمام الجزائريين، وكان لها صدى واسعاً في أوساط الجمهور هناك. ثم استقر في ليبيا محاطاً بتكريم استثنائى واهتمام بالغ ومحبة صادقة من الشعب العربي الليبي على جميع المستويات. وخلال ذلك وُجّهت له دعوة لزيارة أمريكا اللاتينية ؛ فسافر إلى فنزويلا والبرازيل والتشيلى.

وفي سنة ١٩٨٧م وُجّهت له دعوة لزيارة السودان، وهناك كان برعاية وضيافة شعب السودان وشبابه المثقف، حيث أقام أكثر من ندوة كان الجمهور يحرص على الالتقاء به والاستماع إليه بإصغاء ومحبة.

وأما عن وضع النواب الآن، فتشير الأخبار التي استقصيناها من الصحف والمجلات ووكالات الأنباء على النت تشير إلى أنه قد حطّ رحاله أخيراً متعباً منهكاً مفعماً بالحنين إلى الوطن، في العراق الأم، بعد ما كان متنقّلاً طيلة حياته لا يستقر له ترحال. ولسان حاله في شعره يقول:

«**وآهٍ من العمرِ بين الفنادق لا يستريحْ/ أرِحنى قليلاً/ فإنّى بدهرى جريحْ** » (المصدر نفسه، ص ٦٧).

يمرّ مظفر النواب هذه الأيّام بمرحلة الشيخوخة، ويعاني من الوحدة والعزلة والاكتئاب. ثم إنّه لا زال يتصارع مع أمراض مختلفة بسبب التقدم في العمر، ومن أهمّها مرض الباركنسون الذي يجعل المريض يعاني من الخرف الشيخوخي والنسيان ؛ وكذلك اضطرابات عصبيّة تؤثر على الحركات وخاصة التكلّم (http://ar.wikipedia.org/wiki). و يشير بعض الذين لهم معرفة أو صلة به أنه ليس في ظروف جيدة معيشياً (سمحان، ٢٠١١م ، ص ٩٠)، وهذا ما يتوقع في عصرنا هذا لمن يقارع السلطات ويمتهن التوعية كمهنة طوال حياته.

اتجاهات النواب وانتماءاته وعلاقتها بشعره السياسي

يقول مظفر نفسه عن أصول العوامل المؤثرة على حياته السياسية والأدبية أن جدّه كان يقرأ له قصائده السياسية عندما كان يرجع من المدرسة في طفولته، ويطلب منه أن يكررها من بعده وكانا يغنّيان معاً (Hassan, ٢٠٠٣،p٥٦) ؛ ثم يقول عن نشأته في صغره:

لقد نشأت في منزل مسيس، وسمعت الكثير عن البريطانيين والمنفى. وكان أول نشاط لي في السياسة مشاركتي في انتفاضة (ثورة) ١٩٤٨ ضد معاهدة بورتسموث (Portsmouth)، **وكنت في المدرسة الثانوية. خاف والدي على سلامتي. وأنا سببت لهم الكثير من المتاعب بسبب نشاطاتي السياسية. كنت أهرب من المدرسة للمشاركة في المظاهرات، وكانوا يبحثون عني في مراكز الشرطة والمستشفيات. كانت الحكومة أغلقت المدارس لوقف المظاهرات؛ لذلك بدأنا نجتمع في منزلنا. كان والدي ذا موقف تقدمي جداً ولم يعترض. سمح لي أن أفعل ما يُريحني** (المصدر نفسه).

إذا عدنا إلى فترة دراسة النواب، سنكتشف أنها كانت ذات أثر كبير على حياته السياسية والاجتماعية. تلك التي يذكرها النواب أنها كانت مرحلة صاخبة وحادّة في بغداد، بل في العراق بشكل عام، وهي تتركز حول احتلال فلسطين، وأن بغداد كانت تقوم وتقعد عندما يقتل فلسطيني، وتقلب الدنيا وتخرج المظاهرات إلى الشوارع، لكنّه يقول عن مشاركته آنذاك في المظاهرات: «**كنت أتظاهر لمجرد أن رفاقي الطلبة كانوا يقاتلون، كان لابد من مشاركتهم**» (علي، ٢٠٠٣م، ١١٧ـ١١٨) ثم تستمر الحال هذه معه في فترة الكلية، أي دراسة الجامعية والتي شكلت نقطة إنطلاق إلى إرتباطه بالحزب الشيوعي بالعراق حيث يقول عنها: «**في زمن الكلية وارتباطي بالحزب الشيوعي، خرجت إلى الحياة الاجتماعية**» (الحبيب، ١٩٩٥م، ص ٨٦).

كان أول اعتقال لمظفر النواب خلال السنوات الدراسية في الكلية، حيث اعتقل أثناء إحدى المظاهرات، وفُصل من الدراسة؛ وبعد شهرين عاد إلى الدراسة، وقد حكم عليه في المجلس العسكري الأول آنذاك (أيام الحكم الملكي) بخمس سنوات مع وقت التنفيذ. كذلك شارك في المظاهرات التي قادتها الأحزاب السياسية والتي أدت إلى ثورة ١٤ تموز ووصول عبدالكريم قاسم إلى الحكم (عزيزي بني طرف، ٢٠٠١ م، ص٩٥).

نحن نتكلم إذن عن مرحلة نضج مظفر النواب ودخوله إلى الواقع السياسي والاجتماعي وخصوصاً فترة الخمسينيات من القرن العشرين التي حفلت بتطورات وحوادث كثيرة، كان لها أن تترك أثراً حاداً على الأديب أو الناشط السياسي أيّاً كان. يقول النواب عن تلك الفترة:

أعتقد أن فترة الخمسينات وما بعدها كانت مرحلة هائلة، حتى صعود الأنظمة الفاشية في المنطقة. تلك المرحلة انطوت على زخم هائل للتحويل والتطوير، وهي قطعت وذبحت بحدّة. لا تزال تلك المرحلة تعيش فيّ ولم تضع كما قد يكون حصل لبعض الناس. ولذلك لا يزال عندي العنفوان السابق للكتابة عن الأحداث التي تحصل. خذ مثلاً أحداث الأرض المحتلة، فهي لا تزال تشغلني حقيقة. وكذلك أي حدث في العراق أو في المنطقة وفي العالم؛ أيّ حدث حقيقي له أبعاد إنسانية (الحبيب، ٢٠١١ م، ص ٨٤).

إذن، الهمّ الإنساني يدفع النواب في شعره إلى اتجاه خاص يتجلّى في نقده اللاذع للذين يراهم مسؤولين أمام أوضاع الإنسان المضطهد. والمصائب التي تحلّ في بلد أو شعب من الشعوب يعتبرها النواب مصائبه دون النظر إلى دين ذلك الشعب أو مذهبه أو عرقه. وهذا ما يؤكده النواب لنا في أحد الحوارات، حيث يقول:

صار الإنسان هو ما يُثيرني أكثر... الإنسان بمختلف تنوّعاته واتجاهاته وحيثياته ومصيره... موت الكثيرين من أصدقائي وأقاربي أحدَث فيّ تطوّراً عميقاً... وجعلني أكثر قرباً من آلام الإنسان ومتاعبه.. حتى أولئك الذين جعلتهم الظروفُ سيّئين... إذن قناعتي الإنسانية هي الوقوف مع الإنسان المظلوم المضطهد ... موقفي هذا بعيداً عن الأيديولوجيا أيّ بعد من الأيديولوجيا . .. قناعاتي أعبّر عنها الآن بعيداً عن الالتزام بأي تنظيم... (علي، ٢٠٠٣م، ١٣٠ ـ ١٣١).

مظاهر المقاومة في شعر النوّاب

١. الوطن والوطنية

إن الوطن لدى مظفر النواب لا ينحصر بوطنه العراق مسقط رأسه. صحيح أن عشق العراق يعشعش في خبايا وجوده، ويُبكيه بين الحين والآخر، وقد لاقى الأمرَّين من أجله قبل هروبه منه تغمره العبرات والحسرة، إلاّ أن شعره ـ وكما أشرنا سابقاً ـ يُظهر معنى الوطنية لديه بشكل آخر. يتجلّى هذا الأمر مثلاً في قصيدته الشهيرة «وتريات ليلية» حيث يتكلم ـ وهو يخاطب الوطن ـ حول حزنه المتصاعد في الغربة بشأن الوضع في بلاده، حيث يقول:

يا غرباءَ الناس! بلادي كصناديق الشاي مهرّبة

أبكيك بلادي.. أبكيك بحجر الغرباء

و كل الحزن لدى الغرباء مذلّة

إلامَ ستبقي يا وطني ناقلةً للنفط

مدهّنةً بسُخام الأحزان وأعلام الدول الكبرى

و نموت مذلّة؟! (النواب، ١٩٩٦م، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢).

يخاطب النواب ـ وكما يبدو ـ الناس في بلاد المهجر باعتبارهم غرباء عن وطنه العربي أو الإسلامي، ويتكلم معهم حول وطنه الذي صار كصناديق الشاي المهرّبة، لا أمن ولا استقرار فيه. ثمّ يغير المخاطب ليوجّه كلامه مباشرة إلى وطنه ليسأله إلى متى سيبقى ناقلة للنفط، تعلوه أعلام الدول الكبرى ويغمره الحزن والألم. من الواضح أن أعلام الدول الكبرى التي ربما تعني تدخلاتهم في شؤون البلاد العربية والإسلامية لا تنحصر ببلد عربي دون الآخر، بل هي ظاهرة ترتبط بغالبية الدول العربية. ثمّ حين يكتب الكتّاب والصحفيون عن شعر مظفر، يعتبرونه شاعرهم ويذعنون بأن شعره هو تعبير عن قضاياهم وانكساراتهم، وأنه يمثّل كل شرائح المجتمع باختلاف بيئاته وجغرافيته، وهو صوت الوطن الثوري ينتقل مع البرق من شرق الوطن إلى غربه (عبدالقادر، ٢٠١١ م، ص٦٧).

٢. دفاعه عن الشعب والطبقات الفقيرة

إن الشعوب وخاصّةً الطبقات الضعيفة والفقيرة محور الدفاع وفي نفس الوقت باعث الهموم عند مظفر النواب. فإن هجا وإن شتم وإن سخر من أحد أو حكومة أو تيّار، فمن أجل هولاء. لقد تكلمنا سالفاً عن نظرة النواب في أدبه السياسي إلى الناس والشعوب وانتمائه إليهم، ونعود مرة أخرى لنقول: إن الفكرة الأساسية لدى النواب ـ كما يعتقد بعض ـ هي إعطاء دور قيادي ولائق للطبقة الثورية المسحوقة والكادحة، ووصولها إلى مواقع السلطة، بحيث إنه الضرورة الفاعلة الوحيدة التي تقود إلى ملكوت الحرّيّة التي ينشدها النواب (حسن، ٢٠٠٩ م، ص ٥٤)؛ فلذلك يصل الحال به إلى أن يقسم بالشعب قائلاً:

«أقسم بالشعب وبالأيام الصعبة قاطبة

ليقاتلهم حتى يصل المركب ثانية..

أو يهلك منتصراً» (النواب، ١٩٩٦م، ص ١٢٦).

فهو حين يتكلم عن كِفاح أحد أبطاله قوى الشرّ والفساد، يقسم بالشعب ؛ لأنّ الشعب عنده يحمل عبء المقاومة والثورة حتى يتخلص من آلامه ومعاناته. فثنائية النواب في دفاعه عن الطبقات المقهورة هي ثنائية الشعب والثورة، حيث نرى هذه الثنائية ظاهرة في غالبية أشعاره :

«مغرم قلبي بأن يبقى مع الناس
وإن عذّبه القرب
وغطّى وجهه النسيان مخموراً
على الآخر بالنسيان
ما أصعب سكراً مطلقاً بالنار في كفّ الرماد!
دائر قلبي مع الأيام والثوّار والعشاق
لا يعرف طعماً للرقاد
وحدودي .. كلّ إنسان يعاني غربة
حتى أرى غربة عادت إلى غربتها» (المصدر نفسه، ص ٢١١) .

٣. الثورة والكفاح المسلح

«ما يؤخَذ بالقوّة لا يُستَرجع إلاّ بالقوّة
بالإرهاب
بقطع اللّوز الصهيونية» (المصدر نفسه، ص ٢٣٩).

هكذا ينظر النّواب إلى المقاومة ودورها في الحياة، وخاصّة إلى قضية فلسطين التي تشكل لدى النّواب وشعراء المقاومة والشعوب العربية والإسلامية القاعدة الأساسية والنبض والشريان. ورغم أنّ أدب المقاومة لا ينحصر بقضية فلسطين، إلاّ أنها ومنذ حدوثها كانت ولا تزال تغذّي هذا الأدب بما أضفتْه عليه من مفاهيم وألفاظ وأساليب أدبية خاصّة.

إن المقاومة لدى النواب ـ سواء أكانت ضد المستعمرين والاحتلال، أم في وجه الاستبداد والظلم والفساد الداخلي في شتّى أنحاء العالم ـ تتمثل بالثورة المسلّحة والكاسحة التي تقلع الشرّ من جذوره وبقوّة، وتزرع محلّه الخير والعدالة الإنسانية. فهو لا يرى للحلّ السلمي أو المفاوضات أو الصفقات محلاً من الإعراب في الظروف الراهنة :

«تنفجر الخزانات
و تنفجر الصالات
و ينفجر الحلّ السِّلميّ» (المصدر نفسه، ص ١٠).

فنراه يخاطب في إحدى قصائده أمَّه موضّحاً لها قضية الشعب العربي قائلاً :

«تعثّر صوت أمّي واعترى كلماتها الشّلل
و قالت لي : قضيّتنا وغصّت بالدموع
فقلت : يا أمّي! قضيّتنا الدمار
أو التراب الربّ لا وسط ولا نخل...
... قضيتنا سلام بالسلاح

فثمّ سلم حفرة وسلامنا جبل
و أن العنف باب الأبجدية
في زمان عهره دول» (المصدر نفسه، ص ٩٠ـ٩٢).

فالسلام مع المحتلّ مرفوض بالكامل لدى النّواب؛ ولذلك ينصح الوفود العربية المفاوِضة مع إسرائيل أن ترسل السّكّين إلى المفاوضات بدل ذهابها؛ لأنه مسلخ الشعوب المظلومة:

«قبيل ذهابكم للمسلخ الدولي وفداً
أرسلوا السّكّين وفداً إنها أمل
سيسمع صوتها
و تشقّ درباً للرجوع وينتهي الخطل» (المصدر نفسه، ص ٩٠).

و يقول في موقع آخر ناصحاً الشعوب العربية بشأن الاتّحاد حول العمل المسلّح لدحر الاحتلال:

«أيها الوطن المبتلى بالقيادات خنثى ومسترجلة
نفّذ المهزلة
والتحم واقتحم بيدٍ قد بَرَئُها البنادق
عن وحشة جوعها يبتسم
إن هذي يداً تبدأ الخير من طلقة وبها السمّ
أطبقوا وحدة البندقية
وحدة أعدائكم تنهزم» (المصدر نفسه، ص ٥٤٣).

يدعو مظفر النّواب دائماً أبطاله من الثوّار والمجاهدين إلى الأعمال الفدائية المسلّحة ضد المستعمِرين والمحتلّين، وكذلك ضدّ الاستبداد والظلم الداخلي. فترى غالبية أبطاله هم من بين الذين قاموا بأعمال كهذه واستُشهدوا، أو اولئك الذين يصف بطولاتهم في المقاومة المسلّحة، وقد لا يكونون موجودين حقيقة، بل اصطنعهم متخيِّلاً إياهم ليكونوا أسوة للشعوب المضطهدة.

عبدالله الإرهابي إحدى هذه الشخصيات المختلَقة التي يتكلّم معها النواب، وكأنه سليله في خلواته أو تلميذه؛ فيعلّمه أسرار المقاومة المسلّحة، ويعرّفه بطبيعة قوى الشرّ بالعالم والمنطقة.

قصيدة عبدالله الإرهابي كلها تحريض علي القيام بالأعمال المسلّحة لنيل الكرامة المستلبة أو تحرير شعب أعزل أو دكّ طغاة فاسدين في البلاد العربية. يقول في أحد مقاطعها:

«سكّينك.. احذر أن تتدجّن للمطبخ!
يا عبدالله أشحذها!
نفّذها تنفيذاً! نفّذها
أصبح ممنوعاً أن تُستَشهد
أو تدفع جيبك عند حدود الجيران وتُستَشهد
أيّهما إسرائيل
الخبز عليه علامة إسرائيل
حبّات الرزّ عليها إسرائيل

المسجد والخمّارة والصندوق القومي لتحرير القدس
بداخله إسرائيل
و أنت اذا لم تفهم.. لم تتعلم يا عبدالله
تمتصّك إسرائيل» (المصدر نفسه، ص ٢٣٢).

ويقول له في مكان آخر مؤيساً إياه من الاعتماد على الدول العربية الصامتة ؛ لأن الوقت تأخّر كثيراً، وكل دقيقة تأخير عن المقاومة المسلّحة تعتبر إتاحة مجال أكثر لمجازر ومذابح أكثر بحق الأبرياء العزّل :

«أتمّ الصمت العربي وليمتنا الكبرى
سقطت لقمة رزّ من فمهم فيها الأسنان
تدحرجت اللقمة حتى قلبك في الغربة وابتسمت
أقسم عبدالله بها تبدأ توّاً بالثأر
و كل دقيقة تأخير مذبحة أخرى
أسنِد كُوعَك للكوّة يا عبدالله
أسنِد كوعك للكوّة
مُدّ الرشاشة في الفجر الشاحب
لا تتأخر ! عدّاد القلب وعدّاد القنبلة الموقوتة متّفقان
و وعي السّبّابة قد بلغ النار
و أيام التاريخ تُقبّل راحتك اليسرى
ضع متراس الشّكّ أمام تُمالة أيامك
والألم الليلي
وخذ حصّة حزن في قلبك لا تسمع إلا دمك الناري». (المصدر نفسه. ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

كما أشرنا سابقاً، إن أدب المقاومة والثورة لا يؤطَّر فقط في إطار مواجهة الاستعمار أو الاحتلال، فإنّه أدب التطلّع إلى الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية بشكل عام، وهذه الأمور قد تكون مسلوبة أو مسحوقة من قِبل الحكام الجائرين أكثر من الأجانب. عندئذ يكون الأدب الذي يتناول هذه التطلّعات والمطالبات أيضاً أدب مقاومة ؛ ذلك، لأنّ على الإنسان مقاومة كلّ عمل يقلّل من شأن الإنسان وكرامته. حينما يدخل شعر النواب في هذا الإطار الداخلي، لا يكون دائماً أدب ثورة مسلّحة، بل هو ينطبع حينذاك بطابع الثورة فقط دون الإشارة إلى السلاح. فمثلاً نراه يقول في قصيدة «الأساطيل» :

«أيها الجمع صه !
لا تصفّق لأنظمة غائبة
ما لها تتثائب هذي الجماهير
تهتف وهي منوّمة
زلزلي.. واكفهرّي.. اكفهرّي !
اكفهرّي يا أجمل من أمّة غاضبة !
امسحيهم فهم حاكمون بغايا بأفواههم !
والشريف الشريف شهامته سالبة

أُركُليهم فأقدارهم يركلون !

وأقدارنا القوّة الضّاربة» (السابق، ص ٣١ ـ ٣٢).

وطبعاً مهما كان شعر النواب الثوري، لم يشر فيه إلى السلاح، إلّا أنه لا يخلو في غالبية الأحيان من العنف والحدّة والدعوة إلى مقارعة الطغاة. قد يصرّح أنه ليست هذه البلاد ساحة حرب بين الشعوب، لكنّه يقصد من هذا التلميح اتّحاد الشعوب لإزالة الطغاة المستبدّين وإزاحتهم بقوّة:

«ليس هنا ساحة الحرب

بل ساحة الالتحام لدكّ الطغاة

و تصفية لدكّ بقايا عروش

توسخ في نفسها خائفة...

... جاء يوم الجماهير ما أخطأت إنها لمقاديرها زاحفة

ليس واعداً على ذمّة الدهر

غير الجماهير والعبقريات والعاصفة

مرحباً أيها العاصفة !

مرحباً.. سيقوم من الجرح أكثر عافية وطني

بجراحاته النازفة» (المصدر نفسه، ص ٢٤ ـ ٢٥).

٤. النقد والهجاء السياسيين

يشكّل النقد وخصوصاً الهجاء سمة بارزة ومنتشرة في شعر النواب بشكل عام، فالمتابع لشعره يرى هذا الأمر واضحاً في السواد الأعظم من شعره. فهو شاعر سياسي يدعو إلى المقاومة والثورة والكفاح من أجل دحر الظلم والفساد. فليس غريباً أن نجد النقد اللاذع وغير اللاذع بوفرة في ديوان شاعرٍ يحمّل السلطات السياسية مسؤولية الاوضاع المأساوية للوطن العربي. نحن نتفق مع تقسيم الهجاء إلى قسمين (ذاتي وموضوعي) والذي أبداه بعض الأدباء كالدكتور سياحي، حيث يقول: «**الهجاء الذاتي لا يعدّ من الفنون الأدبية التي لها صلة بالأدب الملتزم؛ لأنّ الشاعر يهجو الآخرين لحساب مصلحته الشخصية الدنيئة، وأما الهجاء الموضوعي، فيهجو الشاعر الآخرين لحساب قضية تهمّ الأمة الإسلامية والإنسانية بأسرها**» (سياحي، ١٣٨٩ هـ. ش، ص ٦٠)؛ لأنّنا نعتقد أن الهجاء الذي يعتبر نقداً إنّما يعتبر ذا قيمة عندما يكون ملتزماً بقضية عامّة تخدم الإنسانية جمعاء، أو تنال من قوى الشّرّ في العالم. لكنّ المشكلة الأساسية في الهجاء بشكل عام، وعند مظفر النواب بشكل خاص، هي أنه لا يراعي في كثير من الأحيان المبدأ أو الأصل القائل بأنّه يشترط في الهجاء أن تكون المعايب التي يهجو بها الشاعر المهجوَّ معايب حقيقية عند المهجوّ وتُؤخذ عليه (داد، ١٣٨٧هـ. ش، ص ٥٣٥)

٤ـ ١ـ الاستبداد والقمع وفقدان الحرية في البلدان العربية

أحد أهم العوامل والأسباب التي أدّت إلى اغتراب النواب وتشرّده في البلاد العربية وخصوصاً هجرته من وطنه الأمّ، العراق، هو الاستبداد والقمع المفرط وفقدان الحريات الأساسية. فهو أينما يلتفت وحيثما يذهب، يجد المراقبة والكبت والمخبرين:

«في كلّ زقاق أجد الأزلام أمامي

أصبحتُ أحاذر حتى الهاتف
حتى الحيطان وحتى الأطفال
أتقيء لهذا الأسلوب الفجّ
و في بلد عربي كان مجرد مكتوب من أمّي
يتأخّر في أروقة الدولة شهرين قمريين» (النواب، ١٩٩٦م، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

واضح جدّاً أن شخصية كمظفر النواب الذي يمتلك تلك الرؤي والأفكار التي تعرّفنا عليها لا يطيق أبداً هذه الأجواء. فهو يريد أن يتكلّم بحرية وينتقد ويصرخ بوجه الظلم والفساد، ويرفض الذل في قفص السلطان وإن كان آمناً:

«سبحانك كلّ الأشياء رضيتُ سوى الذّلّ
و أن يوضع قلبي في قفص في بيت السلطان
و قنعتُ بكون نصيبي في الدنيا كنصيب الطير
و لكن سبحانك حتى الطير لها أوطان
وتعود إليها
و أنا ما زلت أطير
فهذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر
سجون متلاصقة، سجّان يمسك سجّان» (المصدر نفسه، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

٤ـ ٢ـ نقده للحكّام العرب والدول العربية

لو قلنا أن غالبية شعر النواب السياسي نقد لاذع وهجوم على الحكّام في الدول العربية وقممهم واجتماعاتهم، لن نكون مغالين أو مجازفين. فالمتصفح لديوان شعره يكاد أن يجد الهجاء الشنيع لهم منتشراً هنا وهناك في قصائده المختلفة. فهو يراهم الداء الأساسي لمعاناة الأمة ومصائبها. ولولا تراجعهم وخوفهم وتواكلهم، ولولا خياناتهم بحقّ شعوبهم من خلال تحوّلهم إلى ألعوبة بيد الدول الغربية الكبرى، ولولا انفعالهم أمام قضية فلسطين واحتلال إسرائيل لها، لما كان وضع الأمّة العربية والإسلامية على هذه الحال من الضعف والحرمان والتشتّت. إنهم متّهمون في كلّ شيء. ؛لذلك نرى النواب لا يكلّ لسانه عن انتقادهم في كلّ نقص أو ضعف، وفي كلّ حادث ومصيبة. فهو حين يتكلم عن الفقر والجوع يهجوهم ؛ وحين ينشد عن ألم فلسطين وأهلها يهاجمهم بعنف، وحين يبكي الشهداء والأطفال في الوطن العربي يصرخ بوجههم بفحش وشناعة. وأسلوبه في هجاءهم ونقدهم جاء على طريقتين: أحياناً ينتقد الدول العربية وقممهم بشكل عام ولا يستثني أحداً في ذلك، وأحياناً نراه يسمّي بعض الشخصيات أو الدول العربية بشكل منفرد.

ونحن خلال تصفّحنا لشعره وجدنا أنه ينتقد دول الخليج أو دول مجلس التعاون أكثر من غيرها. وقد يكون السبب ـ كما يبدو من شعره ـ هو امتلاك هذه الدول ثروات هائلة تجعلهم قادرين على الضغط على الغرب بنفطهم وغازهم من جانب، ومساعدة إخوانهم المقهورين في فلسطين والعراق أو بلاد أخرى، بجانب أخرى، لكنّه يرى السبب الرئيسي في عجزهم وتراجعهم جبنهم وخوفهم من القوى العظمى في العالم ؛ لذلك نراه يستخدم السخرية منهم في كثير من الأحيان:

«آه.. صرخ الوزراء الفأريّون
يدوس على ذيل وزير النفط
يقال..

وزير النفط له ذيل يُخفيه بكيس أمريكي
و يسوط ضدّ الارهاب به
مولانا ..
يزعم أن شيوخ أبي ظبي والبحرين ورأس الخيمة
يُخفون ذيولاً أرفع من ذيل الفأر
و حين يخرّون سجوداً للشاه
تبين قليلاً من تحت عباءتهم... » (السابق، ص ١١٦ ـ ١١٧).

من الواضح هنا أن اطلاق اسم الفأرة على الأشخاص إنما يدلّ على خوفهم وجبنهم، وخاصة أنّ النواب يصرّح أن النفط لم يتحول إلى سلاح بيد العرب، بل تحول إلى إغراءات أمريكية لحكام الخليج، كما يقول: «**وزير النفط له ذيل يخفيه بكيس أمريكي**»، أو الخوف من هذه الدولة.

لطالما دعا النواب الشعوب العربية وخصوصاً فتيانها لمواجهة الحكومات. وإذا أردنا وصف نداءاته هذه، من الأفضل أن نقول: لقد جفّ حلقه وبَحّ صوته وهو ينادي ويستنهض الشعوب لإسقاط الحكومات العربية الفاسدة وغير الكفوءة. وهذا يعد المرحلة أو الخطوة الثانية بعد نقد الحكومات والقادة وهجائهم؛ لأن النقد اللاذع الشنيع رسالتُه عدم جدوى الكلام، ومعناه إزالة المهجو. فهو يعتبر هذه المرحلة عرساً للانتفاضة، كما سمّى إحدى قصائده «يوميات عرس الانتفاضة»، حيث يقول فيها:

«**فتية الوطن العربي**
حجار كثير بأوطاننا
فانهضوا للأفاعي
بأشيائها الركب قاطبة
حجر فوق أفعى هنا
هو أيضاً على رأس أفعى هناك
أرادوا جحيماً بمقدار ما يشتهون
بمقدار ما نشتهيهم
نعم وليَعُمّ الجحيم
إرم ربّ الحجر !
إرم...!» (المصدر نفسه، ص ٥٢٤).

المتأمل في أسلوب النواب في النقد يجده ليس مجرّد شتائم أو سبّ سوقي، بل هو مشروع خلق اشمئزاز وفورة غضب عارمة لدى الناس. لا محلّ في هذا المشروع للاعتدال واستخدام الألفاظ الهادئة؛ لأنها لا تؤدي إلى هدف النواب بتحويل البلاد العربية إلى تنور ملتهب يلتهم الفساد والاعوجاج. هذا ما يظهر في غالبية قصائده الهجائية.

قصيدة «تلّ الزّعتر» تُعدّ معرضاً لأساليب مختلفة، يحثّ النواب من خلالها الشعوب العربية ضد القمع والاستبداد. فتارة يخاطب الثوار قائلاً:

«**هاتوا المتكرّش**
خلّوا جمهور البحرين هنا يحضره

و الله أنا الشيخ بن الشيخ حفيد الشيخ
كفي هذه الخاء الوسخة
تشتاقك نار الله بكلّ عقالك...
... لن نرحم منهم أحداً
دلّوهم في النار ببطء
منذ قرون يلتذّون بنا
منذ قرون يشوون الشعب على نيران مناقلهم» (المصدر نفسه، ص ١٨١ ـ ١٨٢).

و تارة يصبّ جامّ غضبه على اجتماعات القمّة العربية التي تنقعد بين الحين والآخر، وتجمع رؤساء وملوك الدول العربية. فهو لا يرى أية جدوى من هذه القمم الخاوية وقراراتها الميتة، فيصفها بقمة الأزياء والتبختر:

«**يا قمّة الأزياء!**
يا قمّة الأزياء!
سوّدت وجوهُكم
من قمّةٍ...
... قمم.. قمم.. قمم
معزى على غنم...
لتنعقد القمّة
لا تنعقد القمّة
لا ،.. تنعقد القمّة
أي تفو على أوّل من فيها
إلى آخر من فيها
من الملوك.. والشيوخ.. والخدم» (السابق، ص ٤٤٢).

و إن سأله أحدهم: لماذا يا مظفر كل هذه الشتائم ؟ يردّ عليه: «**أعتقد أن الحكام العرب هم شتيمة أكبر من أي شتيمة. لقد شتمونا بكلّ تصرّفاتهم، وشعري لا يقتصر على جانب الشتيمة، والشتائم تمثّل جانباً قليلاً منه،... في الواقع هي أقلّ ما يمكن فعله**» (علي، ٢٠٠٣م، ص ٢٥).

٤ـ ٣ـ نقده لاستخدام القضايا الطائفية والعرقية والقبلية لصالح السياسة

يهاجم النواب أي عامل أو سبب يؤدي إلى التشتت بين أبناء الأمة ويسلب الوحدة اللازمة للعمل المشترك الجماعي وصولاً إلى الأهداف المنشودة داخل الوطن وخارجه. فهو ينتقد بشدّة إثارة النعرات الطائفية بين ابناء المذاهب المختلفة الإسلامية، وكذلك استخدام الدين لخلق جبهات مختلفة بين الشعوب وخلق العداءات على هذا الأساس بينها، أو العزف على الوتر العرقي أو القبلي والذي يعيد الأمة إلى عصرها الجاهلي، وإلى الانشغال بالقتل والنهب وإحياء الأحقاد. فتراه يحذّر وينبّه مخاطبيه من الوقوع في هذا الفخّ لتمزيق وحدتهم، ويتّهم الحكومات العربية والدول الأجنبية حتى يتمكنوا ـ وبناءً على القول الشهير: «فَرِّق تَسُد» ـ من تضليل الشعوب ولفت انتباههم إلى أمور بعيدة عن سلطانهم السياسي، كي لا يتعرّض لخطر الثورات إثر الوعي بفساده:

«**استيقظوا !**

استيقظوا ! أيها الناس استيقظوا!
فهم راكبون عليكم
و إلاّ فكونوا صحيحاً ! كلّ هذا الخراب على النقرس الطائفي
أعوذ بكلّ العرافة
إن الرياح تنبّئني أنّ طوفان نوح هناك... » (النواب، ١٩٩٦م، ص ٣٤٨).

يرى النواب أن كلّ هذه الصراعات بين التيارات والجهات المختلفة إنما هو لامتلاك السلطة فاحتكارها، وإن أخذت بعض الأحيان طابعاً إيجابياً في ظاهر الأمر كمواجهة العدو أو مواجهة الحكومة. وقد يكون الدين يستخدم بعض الاحيان من بعض غافلين عن هذه الحقيقة أنّ دين الفقير هو الثورة على مغتصبي حقوقه، وإن تلبّسوا بلباس الدين:

«**تعجّ شوارع هذي البلاد بحرب البسوس**
و ليس يوزَر إلاّ المحاسيب فيها
فيأتي الخليط بلون
ويصعب تحديده أي لون
و يفتح فيها الرصاص مُنابَزةً بين آل فلان وآل فلين
و يسند هذا بقصف العدوّ
و يسند هذا بقصف الحكومة
و الحكم للاحتكار المنسّق ما بين.. بين وبين
فهم مستزلمون ومستخنثون
وبعضٌ توزّع في الجانبين
و تفتك فينا المصارف
خشية دين قديم على الأغنياء
و دين الفقير على آكلي لحمه
ثورة تعتلي كلّ دين..» (المصدر نفسه، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

٤ـ ٤ـ شعره عن المقاومة في السجون

لقد نقل النواب لنا تجربة سجنه وقصّة تعذيبه من قبل السافاك في إيران ضمن قصيدة «وتريات ليلية». لا يكتفي النواب في هذه القصيدة بسرد وقائع هروبه من العراق وكيفية سجنه وتعذيبه، بل يمدّ المخاطب بين الحين والآخر بعبارات توعويّة يلفت انتباهه إلى حقائق أبعد من السجن. فهو بعدما يقصّ ببراعة فنّيّة الظروف القاسية المملوءة بالرعب والقمع والموت خلال التعذيب، لم ينس أن يلفت انتباهنا ـ وبحزن حارق ـ إلى تشرّده من وطنه رغم مقاومته الاستعمار. فهو حصل على سوء الجزاء مقابل وفاءه لوطنه:

«**في طهران وقفت أمام الغول**
تناوبني بالسوط وبالأحذية الضخمة
عشرةُ جلّادين
و كان كبير الجلّادين له عينان
كبيتي نمل أبيض مطفأتين

و شعر خنازير ينبت من منخاريه
و في شفتيه مخاط من كلمات
كان يقطرها في أذني
و يسألني من أنت؟
خجلت أقول له
قاومت الاستعمار، فشرّدني وطني ...» (النواب، ١٩٩٦م، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

و هو في هذه الحال، إذ يعتريه الضعف واليأس والالم، يُمدّه العراق والوطن والله والفلاحون، وحتى الثوار القدامى كعلي وأبي ذر وحسين الأهوازي والآخرين بدعم معنوي وروحي يجعله يقاوم التعذيب:

«غامت عيناي من التعذيب
رأيت النخلة .. ذات النخلة
و النهر المتشدّق بالله على الأهواز
و أصبح شط العرب الآن قريباً منّي
والله كذلك كان هنا
و احتشد الفلاحون عليّ وبينهم كان
علي .. وأبوذر .. والأهوازي .. ولومبا .. أو جيفارا .. أو ماركس .. أو ماو
لا أتذكر فالثوّار لهم وجه واحد في روحي» (المصدر نفسه، ص ٤٩٨).

نعم يظهر هنا ثانية خطاب النواب الماركسي الثوري الشيعي، وتحضر جميع الأسماء التي يجد في ذاته وانتماءاته جذوراً لها، لتمدّه بشحنتها النفسية، وهويتها لا تختلف بالنسبة إليه؛ فالقاسم المشترك للأسماء هو الإباء والثورة والكفاح في سبيل الحق والمحرومين والفقراء.

٤ـ ٥ـ شعره السياسي والدول الغربية

من المفترض أن يكون الشعر السياسي المعارض في البلاد العربية بشكل عام، وشعر ثوري إنساني كشعر النواب بوجه خاص، يرى الدفاع عن الطبقات المقهورة من الشعوب والفقراء والمظلومين وخصوصاً فلسطين واجباً حيوياً يعتلي أي واجب آخر. فيتطرّق إلى كشف دور الدول الغربية الكبرى ـ كأمريكا مثلاً ـ في البلاد العربية، وتأثيرها على قادتها، ثم تدخلاتها في شؤونها المختلفة. وهذا ما يتوقّعه المخاطب العربي على الخصوص من شاعر محايد يتميز شعره بالطابع التوعوي الثوري إزاء مجريات الأمور.

لكنّه وإن تطرق في شعره إلى الدول الغربية وخصوصاً أمريكا ودورها السلبي في الوطن العربي بشكل عام، إلاّ أنه يتخذ الأسلوب غير المباشر لنقدها؛ أي: إنه يخاطب القادة والحكومات العربية وينتقدها لانصياعها لتأثيرات الغرب. وهذا إن حصل، فهو قليل في شعره بالقياس مع الموضوعات الأخرى التي تطرقنا إليها.

وإننا خلال تصفحنا لشعره لم نجد إلاّ نماذج قليلة لهذا الموضوع. فمثلاً نراه يتطرق إلى إعلام الدول الكبرى ـ وهو أسلوب غير مباشر وغير حادّ ـ في كلامه عن الفقر والذلّة في البلاد العربية. وذلك في قصيدة «وتريات ليلية»، حيث يقول:

«إلامَ ستبقى يا وطني ناقلةً للنفط
مدهنّة بسُخام الأحزان وأعلام الدول الكبرى؟

و نموت مذلّة

إلامَ أنا يا وطن في العزلة ؟» (المصدر نفسه، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢).

و النموذج الذي نرى فيه مظفر يشير إلى أمريكا بشكل مباشر ويصفها بأنها أساس الكفر ويتّهم حسني مبارك (رئيس جمهور مصر السابق) بالعمالة لها، هو في قصيدة «طلقة ثم الحدث» ـ التي تختص بشكل عام باغتيال أنور السادات (رئيس جمهور مصر قبل حسني مبارك) على يد خالد الإسلامبولي، والإشادة بفعله هذا ـ وهي إشارة سريعة لا يتوقف عندها كثيراً:

«أمريكا هي الكفر

وأمريكا ومن سوف هنا حسني

ففي سوف صراعٌ لم يَحِن...» (المصدر نفسه، ص ٢٠٥).

لكنّ تحفظ النواب هذا باستخدامه للأسلوب غير المباشر ينهار في لحظة واحدة وفقط في قصيدة واحدة دون غيرها وهي قصيدة «الأساطيل»، حيث نراه يترك السخرية ويثور غضباً كباقي شعره، ويدعو شعوب المنطقة إلى الثورة على حكامهم وإزالتهم ؛ لأنهم مشتركون مع الغرب في الجريمة بحق الشعوب العربية، والتوجه نحو الخليج لدكّ السفن الأجنبية الحربية التي جاءت واستقرّت هناك من أجل تدخّلها في شؤونها ونهب ثرواتها باستخدام أسلحة دفعت ثمنَها الدول العربية على حساب الفقراء في هذه البلاد:

« .. أيها الأساطيل لا ترهبوها!

قفوا لو عُراةً كما قد خُلِقتم!

و سُدّوا المنافذ في وجهها!

و القرى والسواحل والأرصفة...

أحرِقوا أطقُمَ القمع من خلفكم!

فالأساطيل والقمع شيء يكمل شيئاً...

... أيها الشعب أُحشُ المنافذ بالنار!

أشعل مياه الخليج!

تسلّح!...

نصبوا حاملات الصواريخ

نصبوا جوعك...» (المصدر نفسه، ص ٢١ ـ ٢٢).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٥. المقاومة في فلسطين

النواب هو شاعر فلسطين، يذكرها كثيراً ويدور كثير من شعره باتجاهها، مما يجعلنا أن نصنفه دون ريب ضمن شعراء فلسطين. ذلك لأنّها تشكل همّه وجرحه الأساسي الذي يدور حوله شعره (جيدة، ١٩٨٠م، ص ٨٧).

كان لفلسطين الأثر الكبير في إنشاد النواب الشعر بالفصحى، خاصة بعد هزيمة العرب في حربهم مع إسرائيل في يونيو عام ١٩٦٧ (إسماعيل، ١٩٨٨م، ص ٥٣) ؛ لأنّه شعر حينها بضرورة إيصال صوته إلى الوطن العربي بأجمعه، بعد ما كان شعره متركزاً على العراق وبالعامية. فهو يقول في أحد حواراته عن هذا التأثير: «**الآن عندما أسمع أن الفلسطينيين محاصرون ويتعرّضون للقمع، أجد مشتركات في هذا الأمر مع واقعة كربلاء. الوجه المشترك فيهما هو الظلم. هذا الاضطهاد التاريخي يجب أن يقتلع**» (بيدج، ١٣٦٧هـ. ش، ص ٤٦ ـ ٤٨) ؛ لذلك نراه يصرّح بهذا الحب في إحدى قصائده قائلاً:

«لقد أرضعت حبّ القدس

ائتلقت منائرها بقلبي

قبل أن تبكي التي أرضعتني وهي تحكي

كيف ينتزع التراب الربّ

من شعب ويحتمل

و تغتصب الذوائب ثمّ تلوي

كمعصم طفلة يرتادها مستعمر عجل

و كيف مشت مجنزرةٌ على طفل

و كيف مسيرها مهل

و كيف تداخلت شرفاتها بعموده الفقري في حقد ...» (النواب، ١٩٩٦م، ص ٨٩).

تحدّث كثيرٌ من الكتّاب والشعراء عن فلسطين، لكنّ مظفر النواب يعرفه الشعب الفلسطيني، مثلما يعرفه الشعب العراقي؛ يردّد شعره وكأنه واحدٌ منهم. فكأن قصيدة «وتريات ليلية ـ الحركة الأولى» والتي انتشرت كثيراً أعطته انتماءً عربياً فلسطينياً خالصاً. وبالرغم من ذكره لبلدان كالأهواز وظفار وأعياد مصر وبيروت، لكن القدس برز في مقدمة هموم الشاعر وجراحه. يقول النواب في مقاطع من القصيدة « وتريات ليلية/ الحركة الأولي»:

«من باع فلسطين وأثري بالله

سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام

و مائدة الدول الكبرى؟

فإذا أجنّ الليل

تطقّ الأكواب بأن القدس عروس عروبتكم

أهلاً... أهلاً... أهلاً...

من باع فلسطين سوى الثوار الكتبة؟...» (المصدر نفسه، ص ٤٧٨ ـ ٤٨٥).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

خاتمة البحث

قد يشاطرنا الكثيرون هذا الرأيَ أن البتّ والجزم في إطلاق أي حكم في مجال العلوم الإنسانية بشكل عام والأدب بوجه خاص ليس صحيحاً، خصوصاً إذا كان هذا الاستنتاج لا يرتبط بالأمور القياسية كالصرف والنحو أو البلاغة. ثمّ إن للشعرعالمه الخاص وللشاعر فيه فضاءه الخاص يحلّق فيه بما تراه نفسه ويتناسب مع خوالج ذاته. فقد يكون هناك أمر ما يتفق عليه الكثير من الباحثين حول طبيعة الشعر في قصيدة أو بيت منها ومضامينها أو مدلولها، ولكن عندما نعود إلى رأي الشاعر نواجه رأياً آخر.

فمن هذا المنطلق نقول: إنّنا وعلى الرغم من تتبع دقيق وتأمل دؤوب ودراسة طويلة الأمد في شعر مظفر النواب، لا يمكن أن نصدر أحكامنا بقطع ويقين، أو ننكر برفض تامّ جازم ما قد يصدر خلافها. إنّ أهمّ ما توصلنا إليه من خلال دراستنا لمظاهر المقاومة في شعر مظفر النواب السياسي هو كالتالي:

١. لقد انطبع شعر مظفر النواب ـ بشكل عام ـ بالطابع السياسي الثوري والناقد، حيث يدعو فيه دائماً إلى المقاومة والثورة والكفاح من أجل الحصول على الكرامة الإنسانية وإزاحة الحكّام والأنظمة الاستبدادية القمعية الفاسدة ومواجهة الاستعمار والاحتلال الاجنبي. إنّ السياسة حاضرة في كلّ مكان من شعره، وهي ممزوجة بجميع الأغراض ؛

٢. لا وجود للحلّ السلمي في أدب النواب. فشعره المتمرّد الرافض يتمركز عموماً حول المقاومة المسلّحة والأعمال الفدائية ؛ لأنّ القمع والكبت لا يواجَهان إلاّ بالشدّة والعنف ؛

٣. إنّ أبطال مظفر النواب في شعره السياسي جميعهم من الثوار والفدائيين والشهداء ورجال المقاومة المسلّحة، وهم لا ينحصرون بالعصر الحديث أو المعاصر، بل هم من ثوار صدر الإسلام إلى يومنا هذا ؛

٤. إنّ الوطن عند مظفر النواب ليس فقط العراق، مسقط رأسه، بل نراه يهتم بشتّى مدن الوطن العربي ويُعنى بمعاناتها وقضاياها في شعره السياسي. فأينما يكون هناك ظلم وفقر ومعاناة، نجد شعر النواب حاضراً ؛

٥. لفلسطين مكانة خاصة واستثنائية عند النواب شغلت فضاءً واسعاً في شعره السياسي، مما يجعلنا نطلق عليه دون شك وريب شاعر فلسطين. فهو ينتقد العرب بشدّة قادةً ودولاً وشعوباً من أجلها. وفي المقابل يُشيد بالذين ضحّوا واستشهدوا دفاعاً عنها ؛

٦. إننا وجدنا ثلاثة انتماءات أو اتجاهات عند مظفر في شعره السياسي المقاوم، وهي: الماركسية أو الشيوعية، الصوفية، والشيعية الإسلامية. وإنها رغم وجود بعض التناقض فيما بينها، إلّا أنها تمدّ النواب بالنزعة الثورية المتمرّدة وهو القاسم المشترك فيما بينها، كما يظهر ذلك في شعره. ليس للنواب انتماء خاص بل هو ـ وكما يقول ـ ينتمي أوّلاً للجماهير والشعوب الفقيرة المضطهدة وإلى الطبقات المقهورة، وثانياً إلى من يحمل راية الكفاح والمقاومة المسلّحة والثورة للدفاع عن الإنسانية أيّاً كان انتماءه الديني أو العرقي أو السياسي ؛

٧. لغة النواب في شعره في غالب الأمر لغة حادّة وجارحة. وهو غالباً يوجّه نقده اللاذع وهجاءه الحادّ إلى الدول العربية وقادتها خصوصاً دول الخليج. وينتقدهم بسبّ وشتم أحياناً، وبتهكم وسخرية أحيانا أخرى ؛ لأنه يراهم المسؤولين عن معاناة الشعوب العربية بشكل عام وفلسطين ولبنان بوجه خاص. إننا نرى استخدام النواب للألفاظ النابية والبذيئة قلّلت من قيمة شعره، رغم نقاط قوّته وإيجابياته الكثيرة، ورغم دفاع النواب عنها. فإننا لا نرى ضرورة أن يكون الشعر الثوري المقاوم شعراً شنيعاً بذيئاً ؛

٨. يتطرّق النواب في شعره إلى الدول الغربية والاستعمارية، خصوصاً بريطانيا وأمريكا وتدخّلاتها في شؤون الدول العربية ودعمها لإسرائيل، وعدم اهتمامها بالشعوب العربية عامة والشعب الفلسطيني الأعزل بشكل خاص، لكنه نادراً ما يخاطبها ويهاجمها كما يفعل بالنسبة للدول العربية وقادتها. كذلك لم نعهد في شعره إطلاقاً أن يوجّه نقداً أو خطاباً حادّاً إلى إسرائيل رغم حضورها في شعره هنا وهناك ؛

٩. للحرية ـ بمفاهيمها ودلالاتها المختلفة ـ حضور قوي في خطاب النواب السياسي. فهو يشير في مواقع مختلفة من شعره إلى الاستبداد والكبت في البلاد العربية، وفقدان الحرية في الرأي والتعبير فيها ؛

١٠. و أخيراً نقول: إنّ النواب التزم في شعره المقاوم بالدفاع عن حقوق الإنسان المضطهد والمستضعف، وكذلك بالترويج للقيم الإنسانية النبيلة كالحرية والعدالة الاجتماعية واللاطبقية، ومقارعة الظلم والاستبداد والفساد. فنستطيع أن نسميه شاعراً ملتزماً بالقضايا الإنسانية عامة، بعيداً عن أي عنصرية أو تعصّب يحدّان من شمولية نظرته، والفضاء الذي يتحرّك فيه في أدبه.

❋❋❋

المصادر والمراجع

أ. العربية :

١. إسماعيل، أحمد. (١٩٨٨م). «قراءة في ديوان مظفر النواب، المساورة عند حدود المطلق». مجلة *أدب ونقد*. العدد ٣٦.

٢. جيدة، عبدالحميد. (١٩٨٠م). ***الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر***. بيروت: مؤسسة نوفل.

٣. الحبيب، لطيف. (١٩٩٥/٧/١م). مجلة ***المدى العراقية*** الصادرة . العدد العاشر.

٤. سمحان، إسلام. (٢٠١١م). «مظفر النواب.. الزيارة لم تكتمل». ***العرب اليوم***. العدد ٥٠٩٣.

٥. سياحي، صادق. (١٣٨٩هـ. ش). ***الأدب الملتزم بحبّ أهل البيت*** عليهم السلام. (ط ٤). طهران: سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم إنساني دانشگاهها (سمت).

٦. عبد القادر، عبد الإله. (٢٠١١/١/١٦م). «مظفر النواب .. الفارس الجريح». صحيفة ***البيان*** الإماراتية.

٧. عزيزي بني طرف، يوسف. (٢٠٠١/٢/١٧م). «بركان الشعر يتحدث عن نفسه برقّة وهدوء». جريدة *الشوري*. الأهواز. السنة الأولي، العدد ٨.

٨. علي، ميّادة خضر. (٢٠٠٣م). ***مظفر النواب، رحلة الشعر والحياه***. (ط ١). بيروت: المنارة.

٩. النواب، مظفر. (١٩٩٦م). ***الأعمال الشعرية الكاملة***. لندن: دار قنبر.

١٠. ياسين، باقر. (٢٠٠٣م). ***مظفر النواب، حياته وشعره***. قم: دار الغدير.

ب. الفارسية :

١١. بيدج، موسى. (١٣٦٧هـ ش). «مظفر النواب: شعر سفر به جوهر هستى است». مجله ***كيهان فرهنگى***. ش ٥٩.

١٢. حسام پور، سعيد و احمد حاجبى. (١٣٨٧هـ ش). «سهم ادبيات پايدارى در كتابهاى درسى». ***نامه پايدارى (مقالات اولين كنگره ادبيات پايدارى)***. كرمان: بنياد حفظ آثار و نشر ارزشهاى دفاع مقدس.

١٣. داد، سيما. (١٣٨٧هـ ش). ***فرهنگ اصطلاحات ادبى***. (ط ٤). تهران: مروارید.

١٤. شفيعى كدكنى، محمدرضا. (١٣٨٧هـ ش). ***شعر معاصر عرب***. (چاپ دوم). تهران: سخن.

ج. الإنجليزية :

١٥. Carol Bardenstein: *Stirring Words, Traditions and Subversions in the Poetry of Muzaffar Al-Nawwab*, Arab Studies Quarterly (ASQ), Vol. ١٩, ١٩٩٧.

١٦. Faik Hassan: «Muzaffar Al-Nawwab remembers a distant child hood», *Al-Ahram*. No. ٦٣٤, April ٢٠٠٣.

١٧. Ghareeb, Edmund: *A Historical dictionary of Iraq*, Scarecrow press.inc, U.S.A, Maryland, ٢٠٠٤.

١٨. أنطون، سنان. «القرمطي الأخير». في

The Arab studies journal ., vol ٤, no ٢, fall ١٩٩٦.

١٩. موسوعة ويكي بيديا: http://ar.wikipedia.org/wiki